٥ ـ القلب المسكين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر الى هـذه الفتّانة تمثّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعتْ ولمعتْ نبدتْ له مُفسرةً فى هـذه الغلائل غلائلُ العُرْس ؛ وما غلائل العرس ؟

إنها تلك الثيابُ التى تكسو لابستها إلى ساعة فقط . . . ثياب أجل ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب ، فأزهى ألوانها اللون المشرقُ من روح لا بستها ، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين

تلك الثيابُ التى تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخزّ ، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها . . .

ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال : هذا هو انتقامُها

قلت : يا عجبا ! أتريدها فى ثياب راهبة ؛ مُكبكبة فيها كما أُلقيت البضاعة فى غرارة ، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة ، وبياض هو شعار الكفن لهذه الأنوثة ؟

قال : أنت لا تعرفها ؛ إن الرواية التى تُمثّل فيها بين الروح والجسم ، هى التى احتاجت إلى هذا الفصل يقوّى به المدى ؛ وكل عاشقة فمشقُها هو الرواية التى تمثّل فيها ، يؤلفها هـذا المؤلفُ الذى اسمه الحب ؛ ولا تدرى هى ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويضع وينقّح كما تتنزّل به الحالُ بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعـد المصادفة ؛ وعليها هى أن تمثل . . .

قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاما ؟

قال : إن الأفكار أشـياء حقيقية ، ولو كُشف لك الجوّ هذه الساعة لرأيته مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنه مقالة جريدة .

هذا الفصل حوارٌ طويل فى الهمّوم والآلام ورقة الشوق وتهالك العصبوة ؛ لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطى . . .

قلت : يا عدو نفسه ما أعجبَ ما تُدقّق . لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلّح بما شاءت لا من أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتها فى سلاح من تحبه فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها . . .

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها فهى تظهر كيفما اتفق ، مرسَلةً إرسالاً فى اللّفتة والحركة والهيئة والقَومة والقَعدة ، وهى من علمتَ : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، ككل ذى صنعة فى صنعته ، فكانت فى تماديها خطراً أىّ خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثل شيئاً لا أدرى أهو ظاهر مخفائه أم هو خافٍ بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل فى حسابه ، فكانت الخبيثة الماجنة كأنها تسكره بسكر حقيق غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر .

وكانت لذهنه التخيّل كالسحابة المتلئة بالبرق ؛ تومِضُ كلّ لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة . . .

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزةُ البهيميةُ بعينها محاولةً أن تكون شيئا له وجود فنى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان فى واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألمّ ، والألم أشـدّ ، والقلةَ كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فأنها تقتحم الحدودَ وتغزو غزوها وتحتلك

يا لسحر الحب من سحر ! كل ما فى الطبيعة من جمال تظهره الطبيعةُ لعاشقها فى إحدى صور الفهم . أما الحبيب الجميل فهو وحده الذى يظهر لعاشقه فى كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة ، ففى ساعة يكون العقل ، وفى ساعة يكون الجنون

(١) نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذى وصفته لنا إحدى الأديبات بأن « فيه أشياء مادية » . فنحن نرى إلى تصوير الغريزة ثائرة مهتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل

يا لسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الانسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحتْ له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى... وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المِدة... وبرزت له صريحةً كما هى ، ولما هى ، ومن حيث أنها هى هى ؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة

آه من (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن فى كل امرأة ... امرأة يقال لها (هى) باعتبار الضمير للتأنيث فقط كما يعتبر فى الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هى) المفردة فى الكون كله لا توجد فى النساء إلا حين يوجد لها (هو) ... ...

* * *

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يملأ قلبين مسكينين لا قلباً واحدا ؛ وكانت لى (هى) من الهيَات عانيت فيها الحبَّ والألم دهراً طويلاً ؛ وقد ذهبتْ بى فى هواها كل مذهب إلا مذهباً يحلُّ حراماً ، أو مذهباً يُخلُّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشىء السامى فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال الأنثى يظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر فى جمالها . فهو فى الأولى يشهد الالاهيةَ فى إبداعها السامى الجميل . وفى الأخرى لا يرى غير البشرية فى حيوانيتها المتجملة ...

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلى الذى يملأ العالم — قد جعلت حنين العشق فى قلب الانسان هو أول أمثلتها العملية فى تعليمه الحنين اليها إن شاء أن يتعلم . فكما يحب انسانٌ بروح الشهوة يحب انسان آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة (تلطيف الصور) أى جعله مستعدا للتوجه الى النور والحق والخير ، وقد عدُّوا فيما يعين عليه الفكر الدقيق والعشق العفيف

وكذلك تبينتُ مما علّمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرَضها لكل آدم وحواء بمثلان الرواية . . فأذا « قطفا الثمرة » طُردا من معانى الجنة طردا كهوَ من الجنة [1] ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء الى حقائق الأرض

نعم هو الحب شىء واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل . وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانياً يُراكم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة

والمعجزة فى هذا الانسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شىء طبيعةَ الاحساس به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان . وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعْه فى نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع والحكمة الناضجة ، فأن لم يستطع فلا أقل من شيئين الحلال والحرام [2] .

* * *

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبته فى فصل العروس هو انتقامها ، حاصرت عيناها عينيه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة فى معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب ...

وأردت أن أعيبها بما صنعت نفسها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت فى غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ويا أحمر الخدين

(١) أى طردا كالطرد من الجنة

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر

وقد أمسك عن جوابي وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مرة ، وكانت ثياب العروس وهي تزف تريه ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة . وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه

والعجيبُ العجيبُ في هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام ؛ ليس إلا هذا ولا يكون أبداً إلا هذا . فهما أعطيتَ من جدل فأقناعك الحب المستهام كاقناعك النائم المستَثْقَل[1] ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع

* * *

ثم . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت

ضحكت بحزنٍ حُزنَ[2] الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم ن حقيقة غيرها . . وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصبورة ، للخير الذي اعتدى عليه الشر فأحاله ؛ والأرادة التي أكرهها القدر فأخضعها ؛ والعفة المسكينة التي أذلتها ضرورة الحياة ؛ والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة

وياما كان أجملها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك ؛ تتنهد ملامح وجهها وفمها يبتسم

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحمل هذه العقدة ... ؟

وانقضى التمثيل وتناهض الناس

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع) مصطفى صادق الرافعي

إلى ا . ج . بدمشق : يابى قل لذلك الذي يسمي نفسه فقيها : إن كتب الفقه لو قالت لله انخدع لحيلة الفقهاء في تحليل ما حرمت ، لكانت كتب الكفر لا كتب الفقه ...

وسنكتب يوماً إن شاء الله مقالة (الهائم) فان الاسلام مبتلى بهؤلاء الذين يأكلون في بطونهم نقها ... الرافعي

(١) بفتح القاف أي الذي أثقله النوم

(٢) حزن الثانية في هذا التركيب منصوبة على أنها مفعول مطلق

تطور خطير
في السياسة الدولية
هل تقترب نذر الحرب
بقلم باحث دبلوماسي كبير

تتابعت الحوادث الدولية في الأسبوعين الأخيرين بسرعة ، وبدت في الأفق أزمات واحتمالات مزعجة يرى فيها المتشائمون نذر الحرب تجتمع وتهيء الأسباب للاصطدام الخطر ؛ ففي أسبانيا تتطور الحوادث تطوراً واضحاً ، إذ يقف هجوم الثوار على مدريد ، بعد أن كادت تسقط في أيديهم ، وترجح قوات الجمهوريين التي تؤيدها نجدات سوفيتية قوية ؛ وتسارع إيطاليا وألمانيا إلى الاعتراف بحكومة برجوس (حكومة الثوار) لكي تشد أزر الجنرال فرانكو زعيم الثورة من الوجهة المعنوية ، ولكي تسبغ على حكومته صفة الدولة المحاربة فيسهل عليه تلقي النجدات الخارجية بصورة أوسع ؛ وقد ظهر أثر هذا التأييد واضحاً في تصرفات الجنرال فرانكو الأخيرة ؛ فقد أعلن أنه سيفرض الحصار البحري على شواطىء اسبانيا الشرقية والشمالية ، وأنه سيغلق ثغور اسبانيا التي بأيدي الجمهوريين أعني برشلونه وبلنسية واليقنت ومالقة ، وأن سفنه ستطلق النار على أية سفينة أجنبية تدخل هذه المياه ؛ ووجه الجنرال فرانكو أيضاً إلى فرنسا إنذاراً بطلب الذهب الاسباني الذي سحبه الجمهوريون من بنك اسبانيا ، وأودعوه في باريس ؛ ومع أن الجنرال فرانكو لا يملك من الوحدات البحرية سوى عدة طرادات صغيرة لا تستطيع أن تضطلع بمثل هذا الحصار الضخم ، فان المفهوم أنه سيعول في تنفيذ وعيده على يد الغواصات الايطالية والألمانية ؛ وقد ظهر أثر هذه المعاونة البحرية سريعاً في إصابة الطراد الجمهوري « سيرفانتيس » من مقذوف بحري أطلقته عليه غواصة أجنبية ؛ على أن الجنرال فرانكو لم يلبث إزاء موقف إنكلترا وتشددها في عدم اعتبار صفة شرعية لحكومة الثوار ، ومطالبتها بألا يتعدى الحصار المياه القومية ، أعني مدى الثلاثة أميال المقررة في القانون الدولي ، وأن تعين منطقة محايدة لرسو السفن الأجنبية ، أن اضطر إلى تعديل موقفه والتسليم بهذه المطالب التي أيدتها